المحاضرة الأولى

مفهوم اللغة عند القدماء والمحدثين

د. تومان غازي الخفاجي

أولا: وظائف اللغة البشرية وفرقها عن لغة الحيوان:

اللغة هي مجموعة من الرموز والإشارات المستخدمة كأداة من أدوات المعرفة والتواصل الاجتماعي، وهي من أهم وسائل التفاهم بين أبناء المجتمع في شتى مجالات الحياة، ومن دونها يصعب تطوّر النشاط الإنساني المعرفي؛ لأنّها ترتبط ارتباطاً عميقاً بالتفكير، وبشكلٍ عام تتطوّر اللغات وتتنوّع مع مرور السنوات، ويُمكن إعادة تاريخ تطوّرها وبنائها من خلال المقارنة بين لغات أجدادنا ولغات أبنائنا، ومن خلالها يتمّ التعرف على هوية الجماعات السابقة، وتراثها، وحالاتها الاجتماعية، والثقافية، والإنسانية، وتتميز اللغة البشرية عن اللغة الحيوانية بثلاث مميزات ترجع كلها إلى انفصال اللغة البشرية عن الواقع المعيش وتستقل عنه، وارتباط اللغة الحيوانية بالواقع المعيش، وتظهر الفروق الثلاثة في الجدول الآتي:

ت	اللغة البشرية	اللغة الحيوانية
١.	بسبب انفصالها عن الواقع يُصبح الإنسان كائنا تاريخيا، إذ تنقل إليه لغته خبرات أجداده منذ ملايين السنين.	بسبب ارتباطها بالواقع المعيش، لا تستطيع لغة الحيوان نقل خبرات أجداده له، فهو كائن غير تاريخي.
٢.	بسبب انفصال لغة الإنسان عن الواقع يتمّكن بها أن يُخطط للمستقبل والمستقبل البعيد مثل يوم القيامة.	بسبب ارتبط لغة الحيوان بالواقع المعيش، لا يستطيع الحيوان التخطيط للمستقبل، لذلك ليس للحيوان دين.
٣.	بسبب انفصال لغة الإنسان عن الواقع، تظهر فيها سلبية وهي تُمكِّن الإنسان من الكذب.	بسبب ارتباط لغة الحيوان بالواقع المعيش، فالحيوان لا يقدر أن يكذب، فالطير لا يصيح ويفهم غيره معنى الخطر ويطير، فيضحك عليه الأول مدعيا المزاح.

ثانيا: مفهوم اللغة عند القدماء وخصائصها عندهم:

١- تعريف ابن جني للغة: عرّفِ ابنِ جني(ت٣٩٢هـ) اللغة بأنّها مجموعة من الأصوات التي يُعبّر بها كلّ قومٍ عن أغراضهم واحتياجاتهم، غير أنَّ تعريف اللغة بوظيفتها يختلف عن تعريفها بحقيقتها وعلاقتها بالإنسان؛ لأنّ الأصل في اللغة أن تكون مسموعة أي أنْ ينطقها الإنسان بلسانه وشفتيه ويسمعها شخص آخر بأذنيه، وهو ما يتضح في تعريف ابن جني.

٢- خصائص اللغة في تعريفات القدماء: عند النظر بعين النقد والتحليل إلى تعريفات القدماء سنلحظ وجود بعضِ الخصائص المشتركة بينهما، وأهمّها ما يأتي:

أ- صوتية اللغة: عرف القدماء اللغة بأهمّ مظاهرها وهي الأصوات؛ لأنّ الإنسان ارتبط بهذه الأصوات ارتباطاً وثيقاً على اختلاف العصور، حتى أصبح في يومنا غير قادر على التعبير أو التفكير عمّا يدور في ذهنه إلا من خلالها؛ لذلك يُوصف الإنسان بأنّه حيوان ناطق أي أنّه مُفكّر عن طريق اللغة.

ب- تعبيرية اللغة: من الوظائف المهمة التي تقوم بها اللغة هي التعبير عمّا يدور في ذهنه من مشاعر وأحاسيس وأفكار وحاجات، ولم يحصر ابن جنّي وظيفة اللغة في توصيل الأفكار كما يرى عدد من العلماء، بل رأى أنّ هناك أشكالاً للغة لا يقصد صاحبها توصل فكرة معينة ومنها الكلام الانفرادي أي بيننا وبين أنفسنا.

ج- اجتماعية اللغة: اللغة لا يُمكن أن تنشأ إلا في مجتمع، ولا يُمكن استعمالها إلا في مجتمع، والكلام يختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية الموجودة في المجتمع الواحد والعصر والواحد.

د- عرفية اللغة: للغة نظام يتعارف عليه أفراد المجتمع، إذ يحكمها العرف الاجتماعي وليس المنطق العقلي، فمثلاً إذا سألنا أنفسنا لماذا سميت الشجرة بالشجرة، والوردة بالوردة، والكتاب بالكتاب، إلى غير ذلك، فإنّه سيقال لنا: لقد اتفق المجتمع اللغوي على أنّ لهذه الألفاظ هذه المعاني المتعارف عليها بين أفراد المجتمع، لذلك اختلفت اللغات بسبب اختلاف الأعراف.

ثالثا: مفهوم اللغة عند المحدثين:

عرّف سوسير F.De. Sassure (١٨٥٧-١٩١٣م) اللغة تعريفا حديثا بأنّها: نظام من العلامات مصممة للتواصل. فما هو المقصود بالنظام والعلامة والتواصل؟

١- النظام:

هو مجموعة من العناصر المترابطة بعلاقات تجعل كلَّ عنصر يحتلُّ موقعا ما يؤدي فيه وظيفة ما، مثال ذلك جسد الإنسان يمثل نظاما؛ لأنّ الجسد مؤلف من مجموعة من العناصر المترابطة بعلاقات وظيفية يُكمل بعضها بعضا إذا احتلّ كلُّ عنصر موقعه الملائم، فللقلب موقع خاص به يؤدي فيه وظيفة، لا تؤديها الرئة، وللرئة موقع تؤدي فيه وظيفتها الخاصة بالتنفس، وإذا نُقلت من موقعها فإنها لا تؤدي تلك الوظيفة.

كذلك الصف نظامٌ من العناصر يتألف من: الأستاذ والطلبة والكراسي والسبورة، وإذا تبدلّ موقع الطلبة واحتلوا موقع الأستاذ فلا يؤدون وظيفة الاستاذ، كذلك إذا حلّ الأستاذ محل الطلاب، وكذلك لا تؤدي السبورة وظيفتها كوسيلة إيضاح إذا غيّرنا موقعها ووضعناها في السقف مثلا.

ومن هنا يظهر مقياس النظام وهو: (موقع× وظيفة)، وكلّ عنصر لا يحتلّ موقعه الخاص الذي يؤدي منه وظيفته فإنّه لا قيمة له، ولا وجود له من منظور وظيفي، فالسبورة الموضوعة على سقف الصف لا قيمة لها ولا وجود لها من ناحية وظيفية، وهنا تظهر أهمية الوظيفة لكلّ شيء، ومثال ذلك إذا اشتريتً قلما جديدا ووجدته لا يؤدي وظيفة الكتابة فإنّك تخطئ إذا سميته قلما، وما عليك إلاّ أن ترميه في سلة المهملات وتجرب القلم الذي تشتريه لاحقا قبل ذهابه عن محل بيع القرطاسية.

٢- مفهوم العلامة اللغوية:

هي شيء حسيّ مادي ينوب أو يحلّ محل شيء نفسي غير مادي هو صورة مجردة من المادة مطبوعة على طين المخ (فكرة أو مفهوم) لا تزيد من وزن المخ شيئا، لذلك يكون المفهوم مختلفا عن الشيء الحسيّ المادي الذي ينوب عنه، مثال ذلك ترتيب الأصوات الحسية (ش ج ر ة) فإنّ العرب اتفقوا على أنّها تنوب عن صورة نفسية مجردة (مفهوم) هو صورة الشجرة المطبوعة على طين المخ. ويتضح ذلك بالمخطط الآتي:

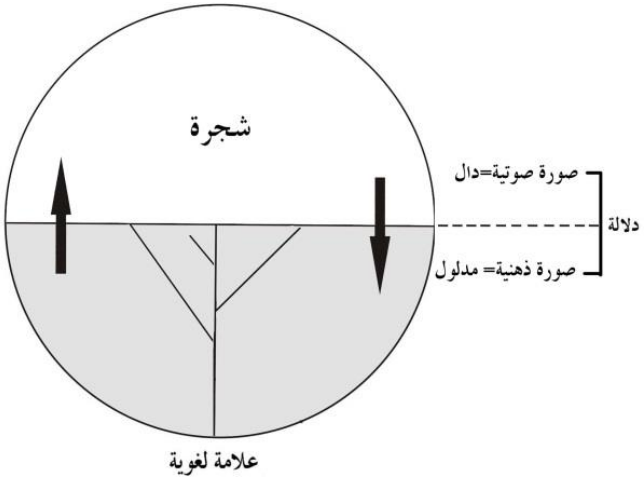

تشير الأسهم المتعاكسة إلى أنه لا يوجد في نظام اللغة دال محسوس لا يحمل معنى، ولا يوجد معنى ليس له دال محسوس؛ إذ لا نستطيع أن نفكّر أو نتواصل من دون علامات مكونة من جزأين مترابطين بنظام تشفيري معيّن، إذ يُشفّر المتكلم المفهوم المجرد في ذهنه ويبثه بعلامة حسية (الألفاظ)، ويعمل المتلقي بفكّ الشفرة فيحوّل اللفظ إلى مفهوم مجرد في ذهنه، أما العلامات المرسلة بالهواء فهي تمثل الشفرة Code.

٣- أنموذج التواصل:

هو عملية وضع معنى مفهوم في دال حسي. تسمّى هذه العملية بـ(التشفير) التي يقوم بها المرسِل للعلامات، أي المتكلم، ثم يقوم المرسَل اليه بتلقي الجزء الحسي ويفهم معناه بعملية تسمّى بـ(فكّ التشفير)، ولو تكلم معنا رجلٌ صيني لم نستطع فكّ شفرات كلامه، كما في المخطط الخماسي العناصر الآتي: